سكرة طوني بيانكيني

قصة بقلم لوشيو دامبرا

ترجمة عوض شعبان

ولد الكاتب الايطالي ريناتو ادواردو مانفانيلا المعروف بلوشيو دامبرا في روما عام ١٨٧٧ ، وبدأ حياته الادبية محررا في صحيفة « بريد المساء » . وفي الاربعين من عمره تمخضت موهبته الادبية عن اعماله الشهيرة في الشعر والرواية والمسرح والنقد ، وترك ارثا ادبيا ضخما بينها مؤلفات بلغت حد الكمال الفني ، مثل « LA FORMICA SULLA CUPOLA DI S. PIETRO » وبعض المسرحيات التي لاقت نجاحا كبيرا في ذلك الوقت ، مثل : « STEEPLE CHASE » . ويعتبره النقاد من كبار (الكتاب الاوروبيين الذين اكدوا عودة الرواية البوليفونية التي لا تحدد بشخص واحد او مشهد واحد ، ولكنها تتمدد في كل مرة ، اكثر فاكثر ، من الانسان الى البشرية ، من الخرافة الى الحياة ، ومن الدائرة المغلقة الى الافق الطلق » . وقد مات هذا الكاتب العظيم في الحادي والثلاثين من كانون الاول عام ١٩٣٩ .

منذ سبع سنوات ، كان طوني بيانكيني يقبع عشر ساعات في اليوم ، قرب الة التسجيل ، في محل كبير لبيع الاواني الفضية ؟ البورسلان والزجاجيات ، يقبض ويدفع ويراقب حركات البائعين .

اتشيليس كاسي ، كان هو صاحب المؤسسة القديمة التي احتفلت منذ مدة قصيرة بيوبيلها ، فقد تأسست قبل خمسين عاما ، في تلك الجادة الكبيرة . وكانت انئذ ، ضئيلة الحركة ، ثم اخذت تتطور بصورة مطردة ، حائزة على « شعبية » ، بالبافطة ذات المعنى الملتبس ازاء اذواق الجماهير ، والمعلقة في واجهة المبنى باحرف كبيرة صارخة .

هناك ، في تلك الزاوية ، عند قاعدة الة التسجيل ، وعيناه مليئتان بضجتها المعروفة ، كان طوني بيانكيني يجوس الماضي احيانا ، ويفكر بالدورات التي قام بها العالم حتى يقذفه في ذلك العمل السمج؟ ان يناقش الاسعار ويعطي « الفراطة » الى العملاء المناكفين .

منذ ثمانية اعوام ، تعرف في احدى العطلات على ابنة اتشيليس كاسي ، حفيدة انسلمي كاسي مؤسس المتجر ، الفتاة الهيفاء ليتيزيا كاسي ، من كانت نحيلة وطويلة ككأس الشمبانيا التي كانت تستعمل قديما ، حوالي العام ١٨٣٠ ... وكانت تبدو رقيقة جدا ، كالزجاج الذي كان يبيعه والدها .

ذات يوم ، بينما كانا يرقصان ، سألته بصوت ناعم ، عن الذي كان يعمله ..

ـ انا ؟ ماذا اعمل ؟ وصلت حديثا من الحرب التي قطعت علي دراستي الجامعية .. اه ، نعم .. فلسفة واداب ! ثالث سنة في مضمار الاستاذية .... الان ، قد فات الاوان لابدأ من جديد ! لدي ثمان وعشرون سنة .. عندما يكون المرء قد شاخ ، هكذا ، لماذا يناضل في سبيل شهادة؟ لن افعل هذا . افضل شيئا اخر .. ان اغدو شاعرا ، كاتبا ...

وتحت ضوء القمر المغري ، امام النافورة الرومانطيقية في الحديقة ، همست الانسة ليتيزيا مشدوهة :

ـ قاص ! شاعر ! اه ، كم هو جميل ! احب القصص بوله مجنون ، اعبد الاشعار! فوسكولو ... ليوباردي ... مانزوني ! .. اذا كنت شاعرا ، لماذا لا تنظم لي بعض القصائد ؟

ولم يكن من الضروري اعادة ذلك ، اذ في الصباح التالي ، بعد ان امضى الليل بكامله دون رقاد ، جلب طوني بيانكيني طردا فيه اثنتا عشرة قصيدة (١) قرأتها على الشاطىء تحت شمس تعمي البصر ، بينما في نوار ، كانت الفتاة تغطي بالرمال ساقيها الطويلتين الجميلتين كي « تتجنب » كما كانت تقول ... « الروماتيزم المفصلي الموروث عن ابي » . وطوني بيانكيني ، من تموز الى ايلول ، كان قد نظم قصائد اكثر من بتراركا في مختلف الاعوام التي نظم فيها شعرا على شرف حبيبته لاورا ! ..

وقالت الانسة ليتيزيا ، وساقاها غاطستان في الرمال الدافئة :

ـ كل شاعر له ملهمته (٢) ... دانتي ، كانت له بياتريز ! بتراركا ، كانت عنده لاورا ! ليوباردي ، كانت لديه نيرينا ... وانت ، عندك ليتيزيا ! ..

وترديدهما لعبارة « انت » في الشعر ، ما كان اكثر منها طبيعيا ، كما لو رددتاها في النثر ايضا !

وليتيزيا ، لشدة ما التهبت حبا بشاعرها ، انذرت اباها عند عودتها الى روما :

ـ بارك يا ابي ، فالسيد بيانكيني سيزورنا ! .. ارجوك ، او افضل ... انذرك باننا ، بطريقة او باخرى ، سوف نتزوج !

والاب قد ابدى خيبته لهذا القرار ، لاعنا الشعراء والشعر ، مؤكدا ان طوني بيانكيني ليس لديه ليرة واحدة من خاصته ، وكان يعيش على الموارد الهزيلة لامه التي تكفي فقط ، ارملة زعيم (٣) مات في الحرب ... ولكن الانسة ليتيزيا الحت :

ـ عبثا نتناقش . لدي ثلاثة وعشرون عاما ، والقانون يسمح لي بالزواج ممن ارغب ... وليست لي حاجة للمال ، اذ لديك ما يكفيني منه ايضا !

والاب الغاضب من صلابة ابنته ، صاح بان ماله لن يكفي شعراء عاطلين .. ولكن ليتيزيا اعترضت :

ـ سيعرف زوجي كيف يربح حياته .. انها مسألة وقت فقط .. ان يبتدىء يا ابي .. انا متأكدة انه سيغدو كاتبا عظيما ! والروائيون يثرون بسهولة ، اكثر منكم.. بائعي الصيني ، الزجاجيات والبورسلان! طوني من قال لي .. اتعرف كم يدفعون لقاء كلمة واحدة ، مجرد كلمة واحدة ، لرودیارد کیبلنغ ؟ .. اربعة دولارات ! .. اسمعت ؟ اربعة دولارات ! اتدري ان ويلزوكونان دويل ، الروائيين الانكليزيين الشهيرين ، لديهما قصور ومتنزهات وقلاع ؟! اتعرف كم تدر في فرنسا ، قصة معروفة جيدا ؟ مئات الالوف من الليرات ! .. وانت تتكلم عن الفناجين

(١) SONETO : هي القصيدة التي تتألف من اربعة عشر بيتا ، تتضمن رباعيتين وثلاثيتين .

(٢) MUSA : في الاصل ربة الالهام عند الاغريق والرومان .

(٣) COLONEL

والقوارير .. عن الصحون واوعية الحساء .. لدي حتى ، رغبة في الضحك يا ابي !

***

عام واحد بعد الزواج ، وبما ان ليتيزيا قدمت له فاتورتين عن ثياب حصلت عليها بالتقسيط ، ردهما اتشيليس كاسي قائلا :

ـ كيف ؟ انا ادفع هذا ؟! هناك خطأ ... فالروائي ، رجل الاداب ، هو الذي يجب ان يدفع ! الا يربح المال اكداسا ؟؟!

واضطرت ابنته لان تشرح له ، كون الخطوات الاولى شاقة كثيرا ، وان الناشرين نادرون وغير واثقين ، والصفيقين المحظوظين يحاصرون الممر ، واضعين الصعوبات امام انطلاق المواهب الجديدة .

ولكن السيد كاسي ، كان صلبا :

ـ لن ادفع باية طريقة . انا اصنع قوارير كما قلت ، وابيعها !.. زوجك يصنع اعمالا رائعة (٤) ولكنه لا يستطيع بيعها !

وهكذا ، لكي تدفع الحساب ، اضطرت ليتيزيا ان تمد يدها الى المدخول الشهري الضئيل ، الذي كان والدها يمنحها اياه للقوت وللبيت ـ مع انه دائما كان يحتج بشدة على زواج هذين «المعتوهين» ...

وفي كل شهر ، متجنبة زيادة النفقات البيتية ، كانت تتناول اربعمئة ليرة من الراتب الشهري لتميت الديون . وكانت في هذه الاثناء ، تتهم عدم مقدرة زوجها ليضمن مؤلفاته .

ـ ريثما تنتظر نشر كتبك ، لماذا لا تتدبر وسيلة لتربح على الاقل ، اربعمئة ليرة في الشهر؟ هناك مجلات كثيرة ، تنشر اقاصيص وروايات ، وهذه الاعمال لم تكتب باقلام عباقرة ... اسماء كثيرة لا تزال مجهولة ، هي لشبان ينتظرون مثلك ، فلماذا لا تكتب اقاصيص وروايات ؟

وكان طوني بيانكيني يجيبها :

ـ انا لست كاتبا رخيصا يا عزيزتي . لست حتى صحافيا ! .. انا فقط ، مثل بلزاك ، قصاص ! الحكايات المسلية ليست من مزاجي .. يلزمني وقت وفضاء ، لاتنفس ، لاتحرك ، لاتخيل ... لاسرد ! .. لكن كوني صبورة .. قريبا ، لا بد من مشاهدة قصتي الجديدة . اثنتان رفضتا دون ان يكون الناشرون قد طالعوهما . ولكني واثق من هذه ! انا متأكد ، انها ستحرز نجاحا . ثمة شيء يقول لي : يوما ما سامسك احد الناشرين ، واقسره على قراءتها . واذا قرئت ، فقد تم الشيء ! ليس عندي شك ، انها عمل رائع ... ينبغي لي ان استطيع التغلب على المؤامرات الادبية ، وعلى اللامبالاة بوجه عام ...

والحق يقال ان ليتيزيا رافقت بحماس شديد ، كملهمة حقيقية ، القصة الاولى فصلا فصلا ، ولكن سيرها بدأ يكل في القصص الاخرى .

واخيرا ، تعبت من الادب . والاعمال الفاشلة المتكررة لطوني ، المتسكع دائما ، من جانب لاخر ، ومخطوطاته تحت ذراعه ، كانت تجبن ليتيزيا ، التي كانت تزداد بدانة سمجة اثر كل خيبة جديدة . وتدريجيا ، تحولت الكأس الدقيقة في الامس ، الى كوب كبير وزجاجة ـ يمكن القول ، ان البدانة ايضا ، اغرقت احلام ليتيزيا الشاعرية في الازمنة الغابرة . وهي الان بدينة ، وقد شرعت تعطي اباها الحق في احاديثها مع اصدقائها الجميعين :

ـ مسكين ابي ! نهاية الامر ، الاباء هم الذين يرون دائما ، افضل واوضح ... ولكن نحن ، لسوء الحظ ، نريد ان نفعل الشيء الذي وضعناه في رؤوسنا ! بدأت الان اتشكك في موهبة زوجي . لا استطيع ان اكون حكما صالحا ، ولكن اذا كان حتى الان ، لم يجن شيئا ، فاحد هذين الاحتمالين يجب ان يكون صحيحا .. اما انه ضحية ، او غبي !..

وقالت لها احدى صديقاتها :

ـ عفوا ، هناك ايضا افتراض ثالث ! فقد يكون فاشلا ! ..

ـ فاشل ؟

ـ نعم ، رجل تافه ، لا يستطيع الوصول الى المكان الذي وضعته فيه احلامه وطموحه ...

(٤) OBRA PRIMA

ومن اعماق بدانتها ، تنهدت ليتيزيا :

ـ لا بد ان يكون هذا ... لا بد ان يكون هذا ... طوني ، لا بد ان يكون فاشلا !

وعندما اعيدت مخطوطة قصته الثالثة ، بواسطة الناشر الاول ، الذي ارسلها مع رسالة مثلجة ... تمتمت ليتيزيا :

ـ بدأت اعتقد حقا يا عزيزي ، انك ، كما قالت صديقتي تيريزينيا ... فاشل ! لست باكثر من فاشل !

***

فاشل أم لا ، كان مقطعا جميلا ، ذلك الذي في اليوم الذي ذهبت فيه مصحوبة بزوجها ، الى بيت ابيها ، معلنة ، ان ذلك التضخم المهيب ، بعد خمسة او ستة شهور ، سيخرج منه طفل ...

فهتف اتشيليس كاسي :

ـ طفل ! ايضا ، ما كان ينقصني شيء اخر ! .. لم يكن لديكما ما تفعلانه ؟! الشاعر والملهمة ؟ اني اسأل نفسي ذاتها ، اذا ما كنتما مجنونين ؟ ... لم يكن كافيا أن الزوج لا يحسن عمل شيء ، فكان من الضروري ايضا ، ابن ، ليكمل العمل الجميل ! ..

كان غاضبا ، وكي تتملكه ، اردفت ليتيزيا :

ـ لا تكن حانقا يا ابي . انا متأكدة بانك ستكون راضيا جدا بالحفيد ... حفيدك الجميل . نعم ، لانه سيكون جميلا ... جميلا كجده وكأمه ... وستعترف في النهاية ، انني وطوني ، سنحصل في البيت ، على عمل رائع ! ..

ـ عمل رائع ! اكنت ملزما على الظهور في هذه الحالة ؟؟ كأن ليس لدي ما فيه الكفاية لتسميم حياتي !.. اعمال زوجك الرائعة ... ليس لدي ما فيه الكفاية لتسميم حياتي ! .. اعمال زوجك الرائعة... كان لازما ان تضاف اليها واحدة من لحم وعظم ، في اسهام منك !

اخيرا ، هدأت العاصفة . اي والد منفعل لا يذوب رقة ازاء احتمال صيرورته جدا ؟ ورغما عن هذا ، كان السيد كاسي يتكلم بجلاء وجد :

ـ والان ، وقد اتى الصبي ليزيد متطلبات الزوجين ، من اللازم ، ان يقرر السيد ـ واشار باصبعه القوية الى طوني بيانكيني ـ نهائيا ، وتختار مرة واحدة ، اما ان تدفن الادب اللعين وتأتي لتعمل في مؤسستي ، او ان تختفوا الثلاثة من امام بصري ، الى الابد ! الشاعر والملهمة والابن « العمل الرائع » ! بوسع المؤسسة ان تعيل الجميع ، ولكن يجب ان يعمل ... مع الشياطين ! الى الجحيم مع هذه السخافات الشاعرية التي لا يشتريها احد . ان اردیني سيحال الى التقاعد ، ويلزم احد ما ليستلم حساب الصندوق . وبدلا من اعطائك وظيفة عادية ، اعطيك عملا بالف ومئتي ليرة في الشهر . ومع الالف الذي اعطيه لابنتي ، لقوتها ، انه مبلغ رائع ! ولكن يجب ان تعمل .. يجب ان تعمل ...

وبعد ايام قليلة ، احتل الملك والملكة ، مكانيهما في المؤسسة .. طوني على الصندوق ، وراء الة التسجيل الاوتوماتيكية ، وليتيزيا ، بدينة مضاعفا ، فوق ما يشبه العرش ، احتلت من القاعة الثانية ، جناحا من المعرض وقسم المبيعات .

وفي المساء الذي بدأ فيه العمل ، حالما رجع طوني الى البيت ، وكان لا يزال عرضة لدوار من رقصة الارقام ، ومن عجلة الزبائن ، وضع مخطوطات رواياته الثلاث في ثلاثة مغلفات واودعها ركبتي زوجته قائلا لها :

ـ الحق مع ابيك . لم يكن من العدل ان نعيش على نفقته . انا فاشل ، رغب فيما لن يستطيع ادراكه . ولكن هذه الاوراق القديمة ، عزيزة علي ، فابعديها من امام عيني ، حتى لا يكون اعتزالي مؤثرا ! .. ولكن احفظيها .. فهي ، بالرغم من الاحزان التي سببتها لي ، لا زلت احبها . انها بالنسبة لي ، كاولادي !

واجابت ليتيزيا :

ـ اشعر باني سعيدة ، لكونك ارضيت ابي . لكني سأحفظ ـ

دينيا ـ قصصك الجميلة ... ربما تدق العدالة يوما ، لك ايضا ..

فهز طوني رأسه كافرا بذلك وذهب لينام . وفي الصباح التالي ، عادت عجلة الامس :

ـ كم يا سيدتي العزيزة ؟ اه .. اثنا عشر طبقا للحساء ؟ ست وثلاثون ليرة .. هنا « الفراطة » يا سيدتي ... زيفيرينو،لف الطرد...

***

ذات يوم ، بعدستة اعوام من هذا التنازل الاختياري ، اكتشف طوني بيانكيني ، عندما كان مستلقيا ، يقرأ صحيفة ، خبرا حول مسابقة ادبية تجريها مجلة بانفاق مع دار للنشر ، بين الكتاب الشبان ، غير الناشرين بعد . ليس من جوائز نقدية ، لكن مجرد نشر القصة الفائزة بعد ستة شهور من قرار لجنة التحكيم .

اطفأ الضوء وتمدد قرب ليتيزيا ، البدينة ، وكانت تغط في نومها ، كفوهة منفاخ ، مجبرة اياه على ان يظل مستيقظا ، في تفكير مضطرب ، يقفز في دماغه. ومن ظلال الماضي ، انتصبت اشباح احلامه، واحدا واحدا ، وقالت له :

ـ واذا اشتركت؟من سيعرف ؟ لم تكن لديك حقا فرصة فقط . قد تكون فاشلا لهذا السبب !في الحقيقة ، لم يقرأ قصصك احد ما ، وهي ليست اسوأ من هذه التي تظهر في كل فصول الربيع والخريف . اطلب نصحا من ليتيزيا ، يمكنها اعادة المخطوطات ...

وبينما كانا يرتديان ثيابهما ، في الصباح التالي ، قال طوني لزوجته عندما كان يعقد رباط عنقه :

ـ اسمعي يا ليتيزيا ، قرأت امس ، في جريدة ، ان مجلة ادبية...

فقاطعته ليتيزيا ، وكانت ترتدي جواربها :

ـ حبا بالله ... لا تأتني ، بعد كل هذه السنين من الصمت ، لتحدثني مرة ثانية عن ادبك البائس ... او انك تريد اغاظة ابي ؟ لقد بات لدينا ولدان ، والثالث سيولد خلال بضعة شهور . وكما ترى ، فاللحظة غير مؤاتية للتحدث في الادب !

والح طوني :

ـ لكن ، كنت اريد ان اقول ...

فهتفت ليتيزيا مدخلة تنورتها عن طريق رأسها :

ـ ولكن ... حبا بالله ،لا تقل شيئا ... اذا سمع والدي ... الجدران لها آذان ... لا اريد قلاقل جديدة بسببك . كفاية ما قاسيته . ماذا تبغي اكثر من ذلك ؟ يعطيك ابي الفي ليرة ... معاملة امير ... لا ارى لزاما ولا مناسبا ان تعود الى افكارك المعتوهة ، الان حيث يعتبرك الجميع شابا مدركا ! ...

ـ لكن المسألة لا تتعلق بابيك !

حاول طوني ان يوضح:

ـ لك انت ، من اردت التحدث اليه ...

فصرخت ليتيزيا :

ـ لا شيء ! لا شيء ! حول هذه القضية لا اود سماع اي شيء . علينا ان نفكر في العمل . كيف كان بوسعي ان اكون جد سخيفة،عندما كنت صبية ، لدرجة ان اضيع وقتي في قراءة القصص ! .. وحتى،انك لست مرتديا ثيابك ؟ اني قد انتهيت وانت لم تمشط شعرك بعد ؟ ستصل متأخرا . وسترى الانفجار الذي سيحدثه ابي ...

وكان الانفجار قويا جدا ، والرعود شديدة الدوي ، لدرجة ان طوني بيانكيني ، في هذا اليوم ، لم يجرؤ حتى على الابتعاد ، ولو لبرهة واحدة ،عن الصندوق، ليتقدم من زوجته الضخمة ، التي كانت فوق عرشها ، تبدو كتمثال جعلته ميكانيكية عبقرية يفتح ويغمض عينيه.

وفي الليل ، بعد المرحلة الاعتيادية في السابعة والنصف ، مع الاب وموظفين مهمين في المؤسسة ، عندما تمدد طوني بيانكيني ، قبل ان يطفيء ضوء الوسادة ، جرؤ على تداول الموضوع من جديد :

ـ الصحيفة الادبية ...

ـ كفاية !

وصرخت ليتيزيا ، مولية له ظهرها :

ـ لست باكثر من مهووس ! ... دعني انام ! اني اموت من النعاس ...

مهووس ! غير قادر على الرقاد، كان طوني يتذكر الامور ، محدقا بعناد ، في عتمة الغرفة.مرحلة اولى ؟ شاعر كبير ، كاتب موهوب ، كبلنغ والدولارات ، ويلز وكونان دويل وقصورهما ! مرحلة ثانية ؟ في العام التالي ، رأي تيريزينيا مؤكد بواسطة ليتيزيا ـ فاشل ! بعد ست سنوات ، مرحلة ثالثة؟ ادارة كتفي ليتيزيا ـ مهووس !

في هذه الحالات ، كيف يحدث زوجته عن المسابقة ، عن آماله الجديدة ؟ كانت حينما تراه يبتاع كتبا بتوفيرات النقود المخصصة للفائف ، تهمهم بقلق :

ـ تنفق نقودا لتشتري اوراقا قذرة ، في الوقت الذي انا فيه محتاجة لاشياء كثيرة ! حبذا لو اشتريت قليلا من القماش لنخيط ثيابا للاولاد .. موتشينو ، مثلا ، تلزمه بذلة .

موتشينو ، انسلمو ، انسلمينو ، انسلموتشيو ... كان هو ابنه الاول . عمره سنتئذ ، كان خمس سنوات . يا للمخلوق المسكين ! لم يكن سوى ابن مهووس ! نعم ، كان هذا رأي الجميع ، في البيت كما في المؤسسة. وعندما كان يدقق في فاتورة ، يأتي بخطأ ، فيفاجأ بالموظفين ، اولئك الذين كانوا يلتصصون بابتسامة صغيرة قاسية ، على طرف شفاههم ، كانما كانوا يسألونه : « لماذا لا تتعلم الحساب ، ايها المهووس البائس ؟» وكان اذا نبه احدى الضاربات على الالة الكاتبة، عن خطأ في القواعد ... كانت الموظفة تنهض مشيرة بكتفيها ، وكان يعرف ان ذلك كان يعني : « يا مهووس ! انتبه للارقام ، ودعني في سلام مع قواعد اللغة ! » ومرات غيرها في الحديث ، عندما كان طوني يشدد في ضرورة تطور الثقافة ... كان حموه يدافع عن الاميين قائلا :

ـ دعني في سلام ياطوني ؟ ماذا استطيع ان افعل اذا كنت ملما بقواعد اللغة ؟ في اي شيء ، هذا ... يساعد عملي ؟ الشيء الجوهري، هو ان تعرف الارقام ،وان تقوم بحسابات صحيحة ... ارقام يا عزيزي ، ارقام ... وكل ما تبقى ، لا يساوي حلزونا !

مع كل هذا ،لم تسحق الرغبة الجامحة ، وتجرأ طوني بعد ايام بان يستجوب زوجته مقدما بناء اخر للجملة :

ـ يا عزيزتي ليتيزيا ، انت ، الطيبة القلب جدا اذ تصونين بانتباه شديد ، نعم ، انا متأكد بانك تحفظينها ... هذه القصص الثلاث ، البائسة ، التي اودعتك اياها .

ـ نعم ، نعم ...

قالت المرأة،

ـ خبأتها مع كل انتباه ، هل تفكر ان احدا سرقها ؟ يجب ان تكون قابعة هناك في المستودع (٥)، في حقائب الادوات العتيقة والتالفة...

وسألها بوجل :

ـ اه ... نعم ؟ في الحقائب ؟ اه ، عال ، عال ... ايمكنك ان تقولي اذا كانت في التي فوق ، ام في التي تحت ؟ ..

ـ اود الاعتقاد بانك تريدني ان افتش عنها في هذه الكومة من الاشياء العتيقة ..

اجابت ليتيزيا واردفت :

ـ لو عرف ابي ان هذا الهوس عاد ! ...

ـ سأكون حذرا ، بحيث اترك كل شيء في موضعه . لا ارغب سوى مشاهدتها ، اذا كانت معانة جيدا .

فاعترضت ليتيزيا :

ـ لا تحاول ان تفعل هذا ، فوالدي هو الذي يحتفظ بالمفاتيح !

ـ ولكن ... انا ...

ـ كفاية ! عكس ذلك ، ستصل متأخرا الى العمل . من الضروري اعداد معرض عيد الميلاد، والموظفون بحاجة لمن يقودهم ، ومن يرشدهم

---

(٥) CELEIRO : وهو المكان الذي تحفظ فيه الحاجيات القديمة وقد تطلق هذه الكلمة على حجرة المؤونة ايضا .

... بعد ان اغسل الاولاد ، سأذهب ايضا لاعد بعض الواجهات حسب ذوقي ...

كان طوني بيانكيني يقول لنفسه بعد مدة قصيرة ؟ ان انتصار الموهبة في مادة الفن ، هودائما ودائما ، نصر للشخصية . ولشق طريق ، تلزم رغبة حديدية لا تنكسر ، ايمان غير مطواع ، ايمان قادر على مقاومة الاحداث المشاكسة، والحالات الاكثر تضادا .

انه لم يكن يدري تماما ، اذا كان لديه ام لا ، قليل من الموهبة،لكنه كان متأكدا من ان الشخصية لم تكن لديه قط .. كيف كان باستطاعته، هو البائس الوضيع ، ان يعترض على ازدراء الجميع ، اذا لم يكن يعرف ان يناهض ازدراء امرأته ذاتها ؟ كان يشعر بكل السخرية التي كانت في تلك الحالة، اذ جاء يتحدث بعد وقت طويل ، عن اماله المسكينة المهملة . وهذا الشعور قد انتهى بان يقطع له الكلمة . لكن ، لو لم يكن بوسعه الكلام ، كيف كان يتسنى له قط ان يحصل على الصواب ؟ كان عليه فقط ، ان يحني الرأس ويعتزل . اسوأ شيء بالنسبة له ، ان اعطاه الله رغبة في الجري ولكنه كان يمتلك زوجا من السيقان النقيلة كالرصاص .

خيط انعكاساته كان ينقطع ليفسح مكانا لميكانيكية المهنة :

ـ كم تدفعين يا انسة ؟ « الفراطة » هي هنا ... شكرا .والسيدة كم تدفعين ؟اه ، عال ... هنا « الفراطة » ... الا تهتمين لو أخذت اوراقا نقدية هكذا ؟ زيفيرينو ، لف هذه الاطباق للسيد النقيب (٦) .

لكنه ، ليلا ، في سريره ، لم يكن يستطيع الرقاد . ليتيزيا كانت تغط ، وكان يدري انه حتى ولا هزة ارضية توقظها . وفي الساعة الواحدة، جرؤ فنهض بحذر على رؤوس قدميه ، دون أن يحدث جلبة ، وترك الحجرة متجها الى حجرة الطعام ، حيث بدأ يكتب على طاولة فيها ، موضوعا اساسيا كان يدور في رأسه منذ زمن ، ونقله شيئا فشيئا الى الورق . كان يقدم قصة ، لكنها قصيرة . قصة قصيرة ، لكنها حية ، عصرية وملذة . وليلة بعد ليلة ، كانت القصة تتضخم . كان طوني بيانكيني ينام ساعتين في الليل فقط ، مستهلكا البقية في التأليف الذي كان يستنزفه بحرارة ، كأنه حمى مهلكة ...

« حياة وموت » كان هو العنوان الذي اعطاه للقصة . وذات يوم بجانب الصندوق ، تثاءب طوني. وجاءت ليتيزيا هابطة من جناحها ، تستوضحه قرب منصة البيع :

ـ ما هذه الخشونة ؟ تتثاءب في وجوه الزبائن ؟ كأنك لا تنام الليل بطوله ولا تسبب لي كبير عناء في ايقاظك كل صباح ؟!

وبهذه الطريقة ، هزل وامسى شاحبا . حتى ان ليتيزيا جزعت فاسرت لابيها بمخاوفها ، فقال السيد كاسي :

ـ اي هزال ! ... لا شيء ! وجه شاعر هو وجهه ... شعر ! .. شعر ...

وضحك بوحشية ، كأن تكلمه عن الشاعر والشعر ، كان بمثابة التسمية للشيئين الاكثر سخرية وعارا في الدنيا .

***

انتظر طوني بيانكيني قرار المحكمين ، ستة اشهر . ويوما ، كان مستلقيا على السرير يقرأ صحيفته ، عندما ترك صرخة تفلت منه بغتة .

ـ ماذا بك ؟ هل انت مريض ؟

سألته المرأة ، وهو ، دون ان يستطيع نطقا ، كان يهز الجريدة فقط:

ـ هنا ... هنا ... هنا ...

ـ ماذا بك ؟ اجننت ؟ اسألك اذا كنت مريضا فتريني الجريدة فقط ! هيا ... لاتفعل كالابله ، انك تخيفني ! سانادي ابي !

واعطى التهديد طوني قوة النطق :

ـ اقرئي هذا ... انها جائزة القصة !

ـ اه ! اعطوا جائزة القصة للمدعو كورادو سبادا ، مؤلف « حياة وموت » .. وماذا يعني ؟ في اي شيء يمكن الافادة منه ؟ اهو احد اصدقائك؟

ودمدم طوني كالاطفال :

ـ كلا ، كلا ، انا لا اعرفه ... كورادو سبادا...كورادو سبادا...

وفجأة تشجع ووجد قوة ليقول :

ـ كورادو سبادا ... ولكنه انا ! .. انا هو كورادو سبادا .. انا هو

ـ حقيقة ؟ الجائزة لك ؟ كم هي ؟ الست تمزح ؟ كم ؟ عشرون الف ليرة؟ عشرة ؟ خمسة ؟ .. ثلاثة ؟ الف ؟ ...

اجابها ضاما اجنحة التخيل التي كانت في عباب الطيران :

ـ لا شيء ! لا شيء ! ليس هنا نقود .. مجرد نشر الكتاب خلال بضعة اشهر .

وفتر ابتهاج ليتيزيا ، للصدمة ، وولد الشك سريعا في نفسها :

ـ حكايات ! هذه هي خيالاتك ... انك تخترع ... اي كتاب هو هذا « حياة وموت » ؟ متى كتبته ؟

ـ في الليل ، خلال ليال عديدة ، بينما كنت ترقدين ...

ـ ولماذا لم توقع اسمك ؟

ـ اخترت لقبا ، من الخوف، خوف الفشل ... وفوق كل هذا ، خوفا منك ومن ابيك ... خشية ان تضحكا مني ...

وبعد عبارات اخرى من الايضاح ، تثاءبت ليتيزيا :

ـ لقد فات الوقت يا عزيزي. اشعر بكثير من النعاس .سنتكلم عن هذا غدا . الان ،التزم الهدوء وقبلني ... هل انت راض ...هاه؟ انا ايضا راضية ... غدا نقول لوالدي ...

ـ لا ، لا ...

توسل طوني ثم استطرد : ـ له ، كلا !

كان يريد مزيدا من الوقت ،واردف :

ـ بعد وقت ... بعد وقت ، ربما ...

وفي اليوم التالي ، كان يرغب ايضا في ان يجهل السيد كاسي ما قد حصل . واوضح لزوجته :

ـ لندع الكتاب يصدر ... لا توجد جوائز مالية ، ووالدك لا يفكر الا بهذا ... انه لن يفهم قيمة جائزتي ، رغما عن الصحف التي تطري نتاجي ، وقولهم بان كورادو سبادا ...

فقاطعته ليتيزيا :

ـ بصدد هذا الموضوع .. لماذا لم توقع اسمك ؟ .. لماذا لا تعلنه الان ؟

فاوضح هو :

ـ لقد فات الاوان.اسم طوني بيانكيني معروف حاليا في الوسط التجاري ، بين زملاء ابيك ، وبهذا الاسم اوقع الرسائل التجارية .ان اباك لن يكون راضيا اذا كان اسمي البائس قد اضاع رصانته وثقته... لهذا ، في ساعة طيبة، صممت على خلق شخصية كورادو سبادا.وبهذه الطريقة لن تكون هناك مضايقات ،اذ ان احدا لا يعرفه ... واذا شاء الله ، في وقت لاحق ، ان اعيش من قلمي ، نترك التجارة ونمضي لنحيا لوحدنا كي استطيع ان اعمل في سلام ، حالما من جديد ... وساغدو لكل الناس ، كورادو سبادا . هناك كثيرون ممن يحيون باسماء اخرى ... بيير لوطي ... اناطول فرانس ... وهنا في ايطاليا !

ـ وهل لديك البهجة لتحيا باسم زائف ؟ اذن ، انظر ، كن عارفا يا طوني بيانكيني او يا كورادو سبادا ، انه عليك ان تنزع هذه الافكار من رأسك ! اجل ، لاني بطريقة ما ، ساترك ابي ، ولن اترك التجارة باية طريقة .انت مجنون ، فمستقبل اولادنا هو في المؤسسة ، وليس في كتبك الشهيرة !

فاجابها طوني بيانكيني بضعة :

ـ سوف نرى ... سوف نرى ...

***

(٦) CAPITAINE

ومضت ستة اشهر . الاعمال كانت في اطراد . افتتحت محلات جديدة ، وكان طوني بيانكيني ،يرىان استحقاقاته لم تزد سوى بمعدل الربع . كان لزاما عليه الان ، ان يظل منكبا فوق دفتر الحسابات حتى لساعتين او لثلاث ،واحيانا ، اذ يطفىء الضوء ، كان يتنهد ، منهوكا من التعب : .

ـ لحسن الحظ ، انتهت السابقة منذ شهرين ... لو كانتالان، ما كان باستطاعتي ان اكتب « حياةوموت » ...

وذات يوم ، وصلترسالة ، كانوا يقولون فيها :

« قصتك « حياة وموت » جاهزة . والاعداد الاولى ارسلتللنقاد. اعمل معروفا ومر علينا لتقبض ما يصيبك ، كحقوق المؤلف ، ولنتفاهم معنا ، حول قصة جديدة ... »

ركض طوني الى البيت منتصرا ، ودخل كهبوب الريح الى غرفة الحمام ، حيث كانت ليتيزيا تعد نفسها للغداء ، وصاح في نقلابتهاجه:

ـ ليتيزيا ، ليتيزيا ! انباء عظيمة ! صدر الكتاب ، ويطلبون مني قصة جديدة ! ذهبت الىهناكهذا الصباح بالذات ، ولكن الوقت كان مبكرا . لم يكن هناك احد . ساعود غدا وكتابي الجديد تحت ساعدي ... هم يطلبون واحدا ، ولدي ثلاثة ! الحمد لله ! كتاب واحد فقط ، لا يصنع ثروةلكاتب ، ولكناربعة .. نعم ، ان اربعة تصنع .... الان، الباب مفتوح ... المجد ، الثراء ... وكله دون احداث ضرر فياعمال ابيك ...

وتوقفت ليتيزيا عنتسريح شعرها ، وتطلعت اليه بامعان ،وبصمت.

ـ ماذا بك يا ليتيزيا ؟ لماذا تنظرين الي هكذا ؟ هيا ... الست راضية ؟ الا ترينني مجنون من الفرح ؟ فكري ... فكري ، بانيغدا، ساقبض الالاف الاولى التي ربحتها من فني ، والتي سآخذها الى ابيك قائلا له :

« هذه هي ... عدها ... لقد ربحتها من كتابي ، اسمعت ؟ والاخر ستتوالى ... لدي ثلاثة كتب جاهزة . ويمكنها ان تطبع في ذات الحجم ... غدا ستنهضين باكرا ، وتطلبين من ابيك مفتاح المستودع ، وسنذهب لنبحث عن القصص الثلاث .. ولكن لماذا لا تتكلمين ؟ هيا اجيبي ، ليتيزيا ! ليتيزيا ! لماذا تنظرين الي هكذا ؟ لماذا ترتجف شفتاك ؟ ماذا بك ؟ اجيبي !

وانفجرت في نشيج، مسندة رأسها بصدر طوني . وفي وسط هذه العاصفة انتهت بان تقول :

ـ سامحني يا طوني ... سامحني ... ما كنت ادري ، ما كان بوسعي ان اعلم ... لكن، منذ ثلاثة اعوام ، احتاج ابي للحقائب ،ليضع فيها ، لا ادري ما هو .. ويوما ، بعت هذه الاوراق القديمة ، بقليل من النقود ،تعرف ! ... ذات المبلغ لشراء زوج من الجوارب الملونة لموتشينو ...

فصرخ طوني بصوت ابح :

ـ والقصص ؟ وقصصي ؟!

ـ سامحني ... سامحني يا طوني ... ما كان بوسعي انافكر... انت نفسك ، كنت تبدو متناسيا ... كنت قد اعتزلت ... صدقت ، اسمع ، ان كل الناسقد رفضتها ... واني صدقت ... كلمات تيريزينيا ، البائسة ، امست مثبتة في فكري ... كنت اراك هكذا ، هكذا فقط ؟ رجلا بائسا ذا تصورات بلهاء ، متروكة الان ومنسية !

وطوني المتألم لدموعها ، اخفى دموعه ، واحتضنها بشدة ، يريد مؤاساتها :

ـ لا تظلي حزينة هكذا ! كان هو حظي ... ما العمل ؟! كان هو حظي البائس ! ...

ورددت ليتيزيا بضعة :

ـ اغفر لي ! اغفر لي ...

لكن ذلك التواضعلم يدم اكثر من اربع وعشرين ساعة ، او افضل، حتى اللحظة التي عاد فيها طوني الى المنزل ، جالبا معه مجلة ادبية كانت تتحدث عن كتابه. وقالت ليتيزيا :

ـ جميل ! جميل جدا ... « حياة وموت » لكورادو سبادا ... ولكني كنت افضل اسمه «حياة وموت » لطوني بيانكيني ! ...

واذ وضعت الكتاب على الطاولة ، مرت بكسل الى مقطع اخر ، اكثر اهمية :

ـ وحقوق التاليف ؟

وبيد مرتجفة ، بسط لها طوني بخوف ، ثلاث ورقات من فئة المئة ليرة ...

فسألته ليتيزيا :

ـ ما هذه ؟ قسم؟ دفعة مقدما ؟

واجاب طوني بعينين مسبلتين :

ـ كلا ، كلها هنا ... طبعوا الف نسخة فقط . انا شاب ، لا زلت مجهولا ،يجب ان ندرك، حتى لو افترضنا انهم يبيعونها كلها ...حسنا، فالورق غال جدا ، وهناك تكاليف الطباعة ، وبعدها ، المكتبات تتقاضى عمولتها ... وهذا هو السببالذي من اجله اقبض ثلاثمئة ليرة فقط !

تناولت بازدراء ، متنهدة ، اوراق النقد البائسة ، ووضعتها في فتحة الصدر ، وقالت بصفح :

ـ افضل من لا شيء ! لكن، المبالغ الشهيرة التي كنا ننتظرها !.. ارباح القصصيين اللامعين ! اوهام ! دائما اوهام ، يا عزيزي طوني... نهاية الامر ، هكذا افضل ... انه على الاقل ، يزيح عني ثقلا كبيرا... فكتبك ، ما كانت لتدر اكثر من الف وخمسمئة ليرة ! لا يهم ! لتنقص الف وخمسمائةليرة ... لكن لن يكون موت انسان ...

وكان مسيرا بالضعة ، يفكر بنفسه ، كما كان الاخرون يفكرون حياله ، وهمس بدوره :

ـ بالطبع ... بالطبع ... ليس هو موت انسان ...

***

في اليوم الحادي والثلاثين من كانون الاول ، كانت العادة ، ان تقام حفلة كبرى . حفلة اختتام العام ، في القاعة الداخلية للمؤسسة . وكان الخمر يتدفق بكثرة ، والسيد كاسي في هذا الميعاد ، خلاف العادة ، كان لا ينظرالى النفقات . وكان جميع الموظفين يأتون.خمسون شخصا كلهم . وبين الابنة والصهر ، كان هو يرئس الاجتماع . وكان يحتسي من الكل : نبيذ ابيض وملون ، بيومونتي وتوسكاني ، جنوي ورومانى ، خفيف وحاد ،ناشف وحلو . ومن وقت لاخر ، كان يسمع صوته :

ـ مهلا يا ناس ! ينبغي ان تتركوا موضعا للشمبانيا ...

وكان المدعوون يصرخون :

ـ شمبانيا ! شمبانيا ! .. لتأت الشمبانيا ! اجل لنأخذ سكرة... هيا ، جميعا ، لنثمل...

كان يسمع قولهمبصورة جماعية . وتطلع السيد كاسي الى ابنته منفعلا ، او بالاحرى ، مذعورا من وضع صهره ، البعيد والمحموم :

ـ زوجك هو الوحيد الذي لن يثمل .

فاجاب طوني متأدبا ، بصوت خافت :

ـ اني لا استطيع الاكثار !

فاستطرد حموه :

ـ لا توجد دماء في شرايينك ! الخمر يعني دماء ، يعني مزاجا جيدا ، يعني قوة...والقوة تعني عملا ، والعمل يعني نقودا ... بهذا فقط تفوز في الحياة ! ومن انت اخيرا ؟ شاعر ! وما كل الشعراء على شاكلتك ... فبينهؤلاء المجانين ، يوجد البعض ممن توصلوا الى ان يفرضوا انفسهم ...

فتوسلت ليتيزيا في دقيقة جلاء :

ـ ابي ، ارجوك ...

ـ لماذا يتوجب علي الصمت ، تخشين عليه ان يهان ؟ اريد العكس، ان احدثه بوضوح ... اريد اعادة تثقيفه بقول كهذا ... هناك اخرون، على الاقل ، يجدون ،يعملونبانفسهم ... الان بالذات ، قرأت موضوعا حول شاب كتب قصة جميلة ...كورادو سبادا ... هذا ، علىالاقل،

عرف كيف يربح جائزته !

بينما كان يتكلم ،كانالسيد كاسي يحتسي الخمر .. وكلالناس من حوله ، كانوا يفعلون نفس الشيء . وازاء كلماته الاخيرة ، نهض طوني بانتفاضة ، معدلا موقفه ، ومحدثا لكمة عنيفة على الطاولة،جعلت كل الكؤوس تهتز . وصاح غاضبا على حين بغتة ، وعيناه شاخصتان :

ـ انت لا تدري من هو كورادو سبادا ؟ انك لا تعرف شيئا ! انت لا تفقه شيئا ! فكورادو سبادا ، القصاص ! القصاص الـــذي تتحدث عنه الصحف ؟ كورادو سبادا هو انا ! انا هو ! انا هو !

واصدت قهقهة داوية في جميع ارجاء القاعة . وانفجر السيد كاسي في الضحك :

ـ كورادو سبادا ، هو ! هو كورادو سبادا ! ثمل هو ايضا ، هو ايضا ثمل !

وصاحت اصوات اخرى :

ـ انه سكران ! انه سكران!

وكان طوني يقول :

ـ اجل ، الكتابهو لي ! الكتاب هو لي ! كورادو سبادا هو انا !

واستمر السيد كاسي في الضحك :

ـ انه خيالي ! لا يصح معارضته ... حسنا يا بني ، كـــورادو سبادا هو انت !..

وكانت لدى ليتيزيا القوة لتقول في معمعان ثملها :

ـ انه هو حقا يا ابي !

لكن كلمانها ضاعت وسط الصخب العام .

ـ هو كورادو سبادا ... انه سكران ! كورادو سبـــادا ... انه سكران !

وبغتة ، بدأ الجميع يغنون ، مرتجلين قافية للحن شعبي قديم :

« ليعش كورادو
وليمت بيانكيني
الاول تالياتالي
والثاني تالياريني »

كانوا كلهم يرددون الانشودة سويا ، ريثما نظهر الشمبانيـــا ... عندها ، خيم صمت جامح ، بينما ألكؤوس تملأ من السائل ذي الرغوة :

واغتنم طوني اللحظة لينفجر :

ـ محفل الانذال ! وانت ايها « البطن الذهبية » ، اكثر نـذالة من الاخرين .. انت بائعالخرصوات الرخيص ، لم تصدق ابدا ، بانني ذو موهبة . كنت تسخر مني لاني كنت شاعرا ، ولان الشعراء كـانوا دائما يضحكون الماديين اللئام امثالك ... انا ، كنت اعرفك ، انـــا الوجل ، الصامت ، المتواضع، كنت اضحك منك ايضا ... من نقودك القذرة ، من لؤمك ، وكنت تثير في الشفقة ، في نفس الوقت الـذي كنت فيه تكرهني .كنت امقتك ، وامقت نقودك ، احساسك العملـــي البليد ، وشعورك السوقي ، وجهالتك المطبقة ، ووحشيتك التيتتجسد فيها جيدا ! كنت اعمل ، بينما كنت انت تنام بنعاس وحشي . كتبت كتابا ونشرته ، وكدت انشر ثلاثة غيره ، لو لم تكن ابنتك الفاضلة ، قد باعتها لتبتاع قذارة ما، لابني ...

ـ لا تشتم حفيدي !

قاطعه السيد كاسي بضراوة واردف :

ـ هذا لا اسمح به . امنعك من الاشارة باسم موتشينوني ...

فاستطرد طوني :

ـ كيف ؟ موتشينونك ؟ موتشينو هـو خاصتي ، ككتابـي ايضا ، كحلمي ، كاسمي الجديد ، الذي ينبغي لكم الا تلفظوه ، ولا واحـــد منكم ...اما الاخر ، طوني بيانكيني ، فاقدمه لكم كهبة ... انه ظلي فقط ... لكن كورادو سبادا ، كلا ... هذا ، لن اعطيه لكـــم ... كورادو سبادا يحتقركم ويحكم عليكم ، على الجميع ، كما هم ! انالشاعر سبادا يعلن ان المالليس هو الشيء الذي يؤثر في الحياة ،وانالتجار ليسوا هم اسياد العالم ، وان الحقيقة تتغلب على كل شيء ! نحـــن الذين سننتصر ، نحن الشعراء ! الحقيقة الوحيدة هي الشعر ...وانتم، حيوانات قذرة ، خنازير ، خزائن رخيصة ، مكدسة نقودا قذرة ، انتم، من لديكم القحة ، تفرضونها علينا نحن الاخرين ، على حريتنا وعلـى حقنا في ان نغدو اكثر نبلا . اننا نسخر من اسمائكم ، ونضحك مـــن انوفكم ، ونغمز منأهميتكم... هكذا ...

وقذف بنفسه الى الامام ، ولكن ، قبل ان تتمكن يده من الوصول الى خد حميه ، امسكتبه سواعد اربعة ، وهيمنت عليه . وعلى الاثر ، سيق الى حجرته ، بينما كان السيد كاسي يصرخ بالشتائم :

ـ جن الشاعر الكبير ، ان عقله مقلوب !

وبينما هو كذلك ، كان الاخرون ، ثملين ، وقساة بفعل المشروب ، يتابعون الغناء :

« ليعش كورادو
وليمت بيانكيني
الاول تالياتللي
والثاني تالياريني »

***

في اليوم التالي ، اول كانون الثاني ، كان طوني بيانكيني ، فـي الساعة الثامنة ، قد اصبح عند الصندوق ، خلف الة التسجيل :

ـ كم يا انسة ؟ زيفيرينو ! لف طاقم الشاي ، هذا .. هذه هي « الفراطة » يا انسة ...

وبعد الظهيرة فقط ، عندما كانت ليتيزيا ما تزال راقدة ، ظهـر السيد كاسي في المؤسسة ، لا يزال وسنان ، تفوح منه رائحة الخمرة ... وعند رؤيته الصهر في عمله المعتاد ، ربت على ظهره برفق، وقال له بصوت سموح :

ـ اي مجنون كنته البارحة ليلا ! ... لست ادري كيف وضعت في رأسك ، انك كورادو سبادا ! وقبعتني بشتائم من جميع القياسات والاحجام ... لكني قد صفحت عنك ، لاني رأيت ان قدحا صغيـــرا يكفي لتبديل رأسك ... تصور انك البارحة ، ايها البائس الفقيـــر ، غدوت ثملا لدرجة مخيفة ! ..

وطوني بيانكيني ، اذ عاد ليبدو لطيفا وموافقا ،تقبل ذلك بابتسامة بـاهتة :

ـارجو المعذرة ... حضرتك مصيب ... فانا حقا كنت ثمـلا تمامـا ! ...

ترجمة عوض شعبان

منشورات دار الاداب

في

المملكة الاردنية الهاشمية

تطلب من

الوكالة الاردنية للصحافة والنشر

لصاحبها مرسي الاشقر

عمان ـ شارع بسمان
تلفون ٢٤٢٢٤ ـ ص. ب ١١٢١